

## ابن حزم الأندلسي

(٣٨٤. ٤٥٦هـ)

### حياته وسيرته:

هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، لقب بالقرطبي وبالظاهر نسبة إلى مولده ومذهبه، فقيه الأندلس وعالمها، صاحب التصانيف في الأدب والجدل والفقه والأحكام، ومجدد مذهب داود الظاهري، ومقعد أصوله ومبين أحكامه الذي بلغت مؤلفاته نحو أربع مائة مصنف ورسالة.. في ميادين المعرفة كافة، ولم يعرف منها تقريباً إلا ثلثها، أما ما وصل فعلاً فلعله يصل إلى العشر!<sup>١</sup> ولذلك احتفت مدينة قرطبة (الأشبانية) بذكره المنوية التاسعة في مايس ١٩٦٣، وعدته "علماً من أعلام ثقافتها"،<sup>٢</sup> ورأى فيه المستشرق الأسباني سانتشت البرنس قمة أسبانية.<sup>٣</sup>

ولد في أسرة عريقة في الإسلام، واختلف في أصله ولم يكن وحيداً في أسرته في النبوغ، بل عرف آخرون منهم ابن عمه أبو المغيرة عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن بن سعيد (ت ٤٣٨هـ) الشاعر الأديب،<sup>٤</sup> وأما أبوه أحمد فقد كان وزيراً للمنصور بن أبي عامر، وكذلك لابنه المظفر، وهو لا يختلف في هذا عن ابن شهيد الذي زامنه، وكان أبوه وزيراً للمنصور ويستبسل الأسبان في نسبة الدماء الأيبيرية إليه من أجداد يفترضون أنهم من المولدين.<sup>٥</sup>

نشأ نشأة مترفة، وتقلب بين جنبات التعليم في ظلال القصور، حيث شارك في الاستماع للمواعظ وأحاديث العلماء في مجالس أبيه، وهو صغير في الخامسة عشرة من عمره، وقد عهد إلى النساء بتربيته، وتحفيظه القرآن، ورؤي الشعر على أيديهن، مما يحمل هذا الأمر أكثر من دلالة، حيث غلبت عليه رقة في شبابه، وحياء وخجل في مجالس الرجال، وسوء ظن بالمرأة لأنه شاهد من أسرار النساء ما لا يكاد يعلمه غيره، وتجاوز الأمر إلى علاقات عاطفية مبكرة، على نحو ما يذكره في سيرته الذاتية،<sup>٦</sup> فلما أضاف إلى ذلك نزعتة الدينية لم يستغرب منه طوق الحمامة.

كان للفتنة أثر في نفسه، ولذلك درسه عدد من الباحثين في ظلها، وتناوله آخرون في عهد الطوائف، حيث بلغ نضجه العلمي، وقد نالته فيما نال الأندلس نكباتها وويلاتها، حتى انتهت به حياته السياسية إلى السجن الذي كان نقطة تحول في حياته، وانصرف

١ ابن حزم الأندلسي واضع علم مقارنة الأديان، د. عبد الحليم عويس، مجلة الفيصل، العدد ٢٨، سنة ١٩٧٩، ص ٥٩.

٢ وردت هذه العبارة في القاعدة الحجرية التي يقوم عليها تمثل ابن حزم القرطبي. (ينظر أندلسيان، ١/١٢٠).

٣ دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، د. الطاهر أحمد مكي، مكتبة وهبة، سنة ١٩٧٧، ص ١٣٥.

٤ الذخيرة، ١/١٣٢، وما بعدها.

٥ دراسات عن ابن حزم، ١٤٣.

٦ طوق الحمامة، ٤٨، ١٤٤. تاريخ الأدب الأندلسي، ١/٣٠٧.

بعدها إلى التأليف والتصنيف، ومناظرة العلماء وزعماء الأديان الأخرى، مثل ابن النفرالة اليهودي وزير صاحب غرناطة، وتكالب عليه الأعداء من كل مكان فلم يستقر به المقام، وكان يتقلب بين مدن الأندلس حتى انتهى به الأمر إلى لبلنه موطنه الذي ولد فيه، فأدرسته المنية سنة ٤٥٦ هـ<sup>١</sup>.

### ثقافته وشاعريته:

ليس من السهولة بمكان أن نتعرف على موارد ثقافته وجنورها، فقد كان موسوعي الثقافة، ملماً بأكثر ميادين المعرفة، حتى إننا نستطيع أن نعدّه ظاهرة فكرية متميزة في تراث الأندلس، ومن القدماء من وصفه بأنه "أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام، وأوسعهم معرفة، مع توسعه في علم اللسان ووفور حظه من البلاغة، والشعر، والمعرفة بالسير والأخبار"<sup>٢</sup>. ووصفه أبو عبد الله الحميدي بأنه كان متفنناً في علوم جمّة.. ذا فضائل جمّة وتوالت كثيرة في كل ما تحقق به من العلوم.

ويرى عبد الكريم خليفة أن رسالته في فضل الأندلس وذكر رجالها تدل على مدى عمق ثقافته وسعة اطلاعه<sup>٣</sup>، ولذلك وقف المحدثون دراسات كثيرة عليه وتعقبته الأقلام فتناولته أصولياً، وفقهياً، ومحدثاً، ومؤرخاً، ولغوياً، وواضع علم مقارنة الأديان، فضلاً عن دراسته أدبياً وشاعراً، ومن الدراسات التي تناولت أدبه وشعره، ما كتبه أحمد هيكل<sup>٤</sup>، وإحسان عباس<sup>٥</sup>، وطه الحاجري<sup>٦</sup>، وعبد الكريم خليفة<sup>٧</sup>، والطاهر أحمد مكي<sup>٨</sup>.

والذي يهمنا من شخصيته هو الجانب الأدبي. وهو جانب واضح ومتميز من شخصيته المتعددة الجوانب، المتشعبة المناحي..

وأول ما يتبادر إلى الذهن، ديوانه الشعري الذي ظلت معلوماتنا عنه شحيحة إلى عهد قريب، فكان الظن سائداً أن نسخة مخطوطة فريدة له، في إحدى المكتبات ولقد تبين بعد فحصها من الداخل أنها ليست ديوانه، بل إن ما له فيها هو ست قصائد فقط، وأما بقية المخطوط فهي من لزوميات أبي العلاء، وقصائد الديوان وردت بهذا الترتيب في مخطوط مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري<sup>٩</sup>، وقد أورد إحسان عباس

١ الصلة، ٣٩٦.

٢ طبقات الأمم، ٨٧. الصلة، ٤١٦/٢.

٣ ابن حزم الأندلسي، ١٠٤.

٤ الأدب الأندلسي، ص ٣٥٥. ٣٦٤.

٥ تاريخ الأدب الأندلسي، ٣٠٣/١. ٣٢٢.

٦ ينظر كتابه ابن حزم صورة أندلسية، ط الاعتماد بالقاهرة د. ت.

٧ كتابه ابن حزم الأندلسي، حياته وأدبه، ط المكتب الإسلامي، بيروت، د. ت.

٨ ينظر كتابه دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٧٧.

٩ ينظر تعليق، د. إحسان عباس في تاريخ الأدب الأندلسي، ١/٣٧٠ هـ أو المخطوطة في دار الكتب المصرية، رقم ١٧٣٠٢ وهي في (٧١) لوحة.

هذه القصائد في آخر كتابه عن الأدب الأندلسي،<sup>١</sup> وإذا كان الأمل معقوداً على العثور على الديوان، فإن دراسة تعهدت أشعار الشاعر بالجمع والتحقيق، لتضعها بين أيدي الباحثين.<sup>٢</sup>

وأقدم من عني بديوانه أبو عبد الله الحميدي (ت ٤٨٨هـ) أشار في ترجمته له إلى ديوانه، ونوّه بغزارة شعره، وأنه جمعه على حروف المعجم،<sup>٣</sup> وما بين أيدينا من أشعاره يتيح لنا أن نكون فكرة عامة عن شاعريته، وأكثر هذه الأشعار يرد في مؤلفاته، ولا سيما كتاب طوق الحمامة، وقد وصف شاعريته عصره الحميدي فقال: "وكان له في الآداب والشعر نفس واسع وباع طويل، وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه"<sup>٤</sup> وفي شهادته دلالة واضحة على عدم اكتراثه بما ينظم من الشعر بحيث يأتي به دون روية وأناة، ولكأن شاعريته كانت تزري بعلمه، لذلك جاء الشعر عنده ثانوياً، وعلى الرغم من ذلك فإنه كان يجيب أصحابه الذين يطلبون منه أن ينظم في تجارب حيم التي تعرض لهم ويصفونها له، لعدم استطاعتهم ذلك، ولقد جادت قريحته في مطلع حياته المبكرة، وهو دون العشرين في نزعة ذوقية عاطفية.<sup>٥</sup>

ومما يعين في التعرف على مذهبه الفني في الشعر آراؤه النقدية في هذا الفن حيث نظر إلى الأدب بشكل عام نظرة دينية فأفتى في جواب من سأله عن الآداب بأنها فرض واجب، على الكفاية، ثم فصل رأيه في الشعر فجعله على ثلاث مراتب، مرتبة يراه فيها حراماً، وأخرى ليست بحرام ولكنه لا يحبها، وثالثة يحبها ويحض عليها. فأما الأولى فهي أن لا يكون للإنسان علمٌ غير الشعر، وأما الثانية فهي أن يستكثر منه، وأما الثالثة فهي أن يأخذ منه بنصيب.<sup>٦</sup> وتأتي نظرته النقدية في رسالة أخرى حيث يصنف الشعر الرديء في أربعة ضروب ويحذر منها معللاً نظرتة وهي: شعر الإغزال والترقيق، وشعر التصعلك وذكر الحروب، وشعر التغرب ووصف المفاوز والبيد، وشعر الهجاء.. وهي أشعار تدعو إلى الفتنة، وتسهل على المرء موارد التلف والتغرب والتحول، وانتهاك الحرمات.

ويشير إلى صنفين آخرين، يجدهما من المباح المكروه، هما: المدح، والرثاء، لأنّ فيهما ذكر فضائل الممدوح والميت، ولأنّ أكثر ما فيهما كذب، ولا خير في الكذب،<sup>٧</sup> وإذا كان ابن حزم متشدداً في أحكامه النقدية منطلقاً من مبدأ الرقابة الدينية الخلقية، في تلك الآراء، فإنه لم يستطع أن يقدم لنا تطبيق ذلك في أشعاره التي تناولت أكثر موضوعات

١ نفسه، ٣٧٠، ٣٧٢.

٢ وهي رسالة ماجستير في كلية الآداب، جامعة القاهرة.

٣ جذوة المقتبس، ٣٠٩.

٤ نفسه، ٣٠٩.

٥ الاتجاه الإسلامي، ٤٣٩، وما بعدها.

٦ الرد على ابن النفريلة، ١٦٠.

٧ رسائل ابن حزم، ٦٥.

الشعر التقليدي، أي إنه قدّم النظرية، وأخفق في التطبيق، ولا سيما فيما سمّاه، شعر الإغزال والترقيق، الذي سنُجلي القول فيه، وربما كان نظم الشعر يمثل مرحلة الشباب وأراؤه النقدية تمثل مرحلة تالية.

### موضوعاته الشعرية:

يتصدر الغزل والنسيب موضوعاته الشعرية فأكثر أشعاره فيه، وهي تمثله في مرحلة الشباب، وقد تميزت بعمق التجربة الشعورية، مع عفة ترتفع به عن الفحش والمجون، وليس ذلك الأمر عنه ببعيد ففي كتابه طوق الحمامة ما ينبئ عن تجارب ذווية له أخبرنا عنها دون أن يجد في ذلك بأساً،<sup>١</sup> وهو الذي جعل أطول أبواب كتابه بايين هما: فضل التعفف وقبح المعصية، ومن أبياته التي نظمها في نعم قوله:<sup>٢</sup>

يَعيبونها عندي بشُقرة لونها	فقلت لهم: هذا الذي زانها عندي
يَعيبون لونَ النور والتبرضلة	لرأي جهول في الغواية ممتد
وأبعد خلق الله من كل حكمة	مُفضلُ جرم فاحم اللون مسود

وأبياته التي تقدمت تعرب عن مذهبه وهو مذهب الأندلسيين، في تفضيل الشقرا على سائر الألوان، ونلمس في قصائده الغزلية نزعة تجريدية، أو باطنية، حيث يذهب مذهب الكلاميين، ويخاطب الظاهر فيها خطاب الباطن فيقول:<sup>٣</sup>

أمن عالمِ الأملاك أنت أم إنسي	أبن لي فقد أزرى بتمميّزي العي
أرى هيئة إنسية غير أنه	إذا عمل التفكيرُ فالجرم علوي
تبارك من سوى مذاهب خلقه	على أنك النور الأنيق الطبيعي

ومن أشعاره التي تكشف لنا عمق تجربته العاطفية قوله:<sup>٤</sup>

وددت بأن القلب شق بمديّة	وأدخلت فيه ثم أطبق في صدري
فأصبحت فيه لا تحلين غيره	إلى مقتضى يوم القيامة والحشر
تعيشين فيه ما حييتُ فإن أمت	سكنت شغاف القلب في ظلم القبر

وفي هذه الأبيات وأمثالها التي ضمنها كتابه طوق الحمامة، ما يتناقى مع النظرية التي قدمها عن موضوعات الشعر الحرة بالنظم فهل جاءت تلك الآراء في أخريات حياته أم أننا نقبل اعتذاره عنها بقوله:<sup>٥</sup>

"فبحسب المرء المسلم أن يعف عن محارم الله عزوجل التي يأتيها باختياره، ويحاسب عليها يوم القيامة، وأما استحسان الحسن، وتمكن الحب فيه، فطبع لا يؤمر به ولا ينهى عنه، إذ القلوب بيد مقلها... وأما المحبة فخلقة، وإنما يملك الإنسان حركات جوارحه

١ طوق الحمامة، ٤٨، ١٤٤.

٢ الطوق، ٥٠.

٣ الطوق، ٢٥.

٤ الطوق، ٩٣.

٥ الطوق، ص ٦٠.